نـافـذة

الكتاب المعقول

كثيرة هي، كما نعلم، منابع المعرفة والثقافة في هذا الزمن. ولعل أكثرها شيوعاً وسائل الإعلام المرئي، وخصوصاً مع انتشار الفضائيات في أجوائنا كما في أجواء العالم كافة. وطبقاً لهذا الواقع الجديد، فقد أخذ حضور الكتاب في أوساط القراء يتراجع يوماً بعد يوم. ويبدو هذا واضحاً في سياق معارضها المتنوعة التي تقام سنوياً أو في مناسبات معينة حيث بدأ العديد منها يعاني ليس قلة عدد الرواد، إنما قلة إقدامهم على شراء الكتاب.

ولعل ما يوضح السبب، هو أن معظم الكتب التي تصدر حالياً عن دور النشر العربية لم تعد تثير شهية اقتنائها وذلك لعدم تميزها بطرح قضايا فكرية إنسانية ملحّة على نحو ما كانت تفعله دور نشر عديدة اشتهرت في هذا السياق في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية. ومن هنا بات ثمة سؤال يطرح نفسه عن ماهية الكتاب الجدير بقراءته في زحمة ما ينشر من كتب على مواقع شهيرة مثل مواقع البحث «الغوغل» وسواها.

إن الإجابة عن سؤال كهذا، يحتاج إلى دراسات معمقة وطويلة الأمد، من المعنيين وذلك حرصاً على ما تبقى من شهية القراءة لدى الراغبين في المعرفة، ومن ثم إمكانية فقدان هذه الشهية في نهاية المطاف.

ولهذا الاعتبار من الأهمية بمكان أن يصار إلى التعريف بما يصدر من كتب، وبشكل مبرمج على الفضائيات، أو حتى بما يعد منها للنشر وذلك على غرار التعريف بالكتاب، قبل صدوره، في بعض الدول الغربية تمهيداً لسوقه عند صدوره. وفي هذا السياق، قد يستعيد الكتاب مكانته في سوق المعرفة، وخصوصاً في زمن السعي لكسب القارئ المتعطش للمعرفة الصحيحة في مجالات المعرفة المتنوعة.

في مناسبات إقامة معارض الكتاب في عدد من بلدان الوطن العربي، نقرأ عن إحجام الزوار عن اقتناء الكتب بالقدر المناسب وعن ضياع فرص الإفادة منها، هذا مع الإشارة إلى أن ثمة ظاهرة تستدعي الانتباه هنا وهي رواج نوع معين من الكتب التي قد لا تتصل بما يعني القارئ من حيث حاجته للتفاعل مع متطلبات العصر الحديث لا مع حاجته إلى من يعيده إلى ثقافة ما قبل هذا العصر لاعتبارات لا ضرورة لذكرها.

إن الكتاب المعقول هو الكتاب الذي عناه فولتير في إحدى إشاراته إليه بقوله: إنه «الكتاب الذي يعلم قارئه شيئاً يفيده في حياته اليومية العادية على أقل تقدير» وهو بذلك لا يتخطى المنطق والمعقول.

د. اسكندر لوقا

فيلم «أمينة» يحقق واقعية فنية باقية

أيمن زيدان في أنضج مراحل عطائه.. المرأة السورية تزرع زهرة الأمل

نهلة كامل

تتتالى العروض السينمائية لتشكل تياراً يشق مجراه في أرض الحرب السورية، ظاهرة إيجابية في ظروف سلبية أحدثها الفيلم الأول لفناننا الكبير أيمن زيدان «أمينة» من إنتاج المؤسسة العامة للسينما الذي استطاع أن يدخل بثبات وتميز إلى عمق الاتجاه نحو واقعية سينمائية جديدة طموحها البقاء كما الإبداع.

زيدان يبدأ من الآخر

يبدأ أيمن زيدان في الإخراج السينمائي من آخر تجربته الإبداعية الطويلة، حيث كانت مسيرته الفنية السابقة خلفية واعية معمقة في فن الدراما، ليأتي فيلم «أمينة» تتويجاً لعمله الفني الذي أدهشنا دائماً في كل مجال، والذي يضعه الآن في خدمة الثقافة الوطنية وهي تمر بمرحلة إعادة تأسيس وتأكيد على مفاهيم بارزة في الهوية الفنية والسينمائية خصوصاً.

ويعكس «أمينة» أن أيمن زيدان، في مرحلة الحرب، واضح الفكر، جريء الطرح شجاع الموقف، وذلك بعد أن حسم أموراً فكرية وفنية مهمة جعلت السينما، لديه، تسلك أبعادها إلى النهاية، من دون مساومة على قضايا الشعب المكافح، ولا تجميل في منتصف الطريق لأسباب ونتائج المعاناة السورية،، ولا حرف لاتجاه إلقاء المسؤولية على أصحابها.

ويبدو أيمن زيدان الذي يبدأ تجربته السينمائية الأولى منسجماً مع نفسه كواحد من كبار الفنانين في أهم مراحل نضجهم وخبرتهم وجرأتهم، ليعبر «أمينة» عن عشق زيدان للحرية الفنية كما الحرية الإنسانية والوطنية.

وتظهر نزعة أيمن زيدان الآن إلى الحرية واضحة في الفيلم، بعد أن أصبح مسيطراً على كامل التجربة الإبداعية كمخرج ومؤلف، تلك التي عبر عنها في آخر مسرحياته «فايركا»، كما عبر عنها في أدائه كبطل لفيلم «الأب» للمبدع باسل الخطيب، حيث أعطى الشخصية كامل صفاتها الداخلية والخارجية الإنسانية والوطنية.

وتتوازى النزعة الكامنة إلى الحرية لدى أيمن زيدان، بالتأكيد مع الظروف الوطنية القاهرة المتطلعة إلى التحرر بكل معانيه، ويجسد فيلم «أمينة» هدية للسينما وإن كنت لا أستخدم كلمة حرية كثيراً، كي لا أسيء استخدام لا نهائيتها وتنوعها وندرتها، لكنني استخدمها في مجال الأمل الذي تطمح إليه واقعية «أمينة».

إن الحرية في الفيلم هي الأمل، أو العكس، والكلمتان بحزنهما وفرحهما، بفشلهما ونجاحهما، هما ركائز الواقع التي يقوم عليها مجتمع سورية في الحرب وما قبلها وبعدها.

واقعية على محك الإبداع

يمثل فيلم «أمينة» بجدارة، اتجاه الأفلام السورية الآن، إلى واقعية نشأت في ظل ظروف الحرب القاسية، لكن اختيار قضية واقعية لا يكفي لتحقيق واقعية فنية، بل يجعلها على محك الإبداع والمقارنة، ولعل أهمية الفيلم أنه يتصدى لتحقيق واقعية فنية عالية.

ولا يميز الفيلم فقط اتجاهه الجريء، بل للأسباب السابقة، كانت خصوصية في أسلوب معالجته السينمائية لأهم قضايا المجتمع السوري الراهن، والتي تمتد جذورها في عمق الحياة الشعبية بكل تكويناتها وأفكارها، وأنه يتحرك بجرأة وعفوية على أرض الحرب الشائكة والمتعثرة.

ويبدو فيلم أمينة للوهلة الأولى وكأنه ينسخ صورة الواقع الموجود، فهو يتقصد ألا يقحم إضافات درامية،، ولا أحداثاً تجميلية مشوقة، بل يجد هدفه في التفاصيل المحتملة الحقيقية، والجوانب الخافية، ويعيش داخل البيئة مجسداً نوازع شخصياتها المنطقية، والضرورة وراء تعلقها وتصميمها على زرع زهرة الأمل كما تقول أمينة في الفيلم. ويقدم «أمينة» حياة عائلة سورية تجسد أبرز قضايا المجتمع السوري وهي معاناة الأسر الفقيرة التي تضحي بأبنائها الأبطال من أجل الوطن، ما يجعل المرأة تضطلع بإعالة الأسرة، رغم كل العقبات الإنسانية والاقتصادية التي تواجهها.

ويختار الفيلم حالات إنسانية مهمة طالما أحب زيدان الدفاع عنها، الأولى هي:

واقع جيل الشباب، والثانية قضية المرأة التي شكلت دائماً ركناً بارزاً في مجمل أعمال أيمن زيدان كان آخرها مسلسل «أيام لا تنسى».

وهكذا يحمل فيلم زيدان الأول اسم أمينة الأم التي جسدت المعاناة الواقعية والفنية لأسرة سورية في بيئة متعبة، لتبرز هنا الفنانة الكبيرة نادين في أجمل وأغنى أدوارها السينمائية والإنسانية.

أمينة الأم شديدة البأس، قوية الإرادة، واضحة المواقف، شفافة الحنان، المتشبثة بالأمل هي الأم السورية التي يقدمها الفيلم، والزوجة المترملة، وربة عائلة تتكون من ابن بطل مقعد فقد كل قدراته بعد إصابته في الحرب، ما عدا تحريك عينيه، ومن شابة تمثل جبلاً تحيط به إحباطات الحرب وتضعه في بؤرة صراع من أجل الحياة.

ويضع الفيلم معاناة الأم السورية في موازاة القتال في ميدان الحرب، هي مركز وديناميو هذا المحيط الأسري والوطني.

إن شخصية أمينة الفنية التي تنوعت بين القوة والحنان، الصلابة والشفافية الهزيمة والنجاح، والتي أبدعت الفنانة نادين في تصوير سلوكها الخارجي المتسم بالكبرياء، وبالعمل كخادمة، كقدر لا يأخذ من وهجها وهيبتها الإنسانية كانت لا تعكس ذاتها فقط بل حركة مجتمع يناضل من أجل البقاء من منظور الأمل الداخلي وهي رسالة فيلم أمينة..

ويتابع الفيلم في إعطاء المرأة مكانتها الاجتماعية المهمة مقدماً شخصيتين متميزتين إلى جانب أمينة، الأولى هي سهيلة الابنة التي قامت بدورها الفنانة الجميلة الموهوبة لمى بدور، والتي تألقت بأدائها وهي تمثل تلك القوة والانطلاقة التي لا تتوقف عند حدود المعيش بل تذهب إلى ابتكار الحلول، وها هي تجد أسلوباً للتفاهم مع أخيها المقعد عبر تحريك عينيه فقط بعد استلهام أسلوب فيلم سينمائي، وهي التي لا تخضع لابتزاز ثري قذر يهدد العائلة بسندات مالية للحصول على سهيلة بالقوة.

ويقدم زيدان الممثلة القديرة لينة حوارنة في دور مهم رغم قصره، وهي امرأة ثرية، تعمل أمينة لديها، وتزرع في قلبها أملاً بأنها ستمشي، وتمشي لأنها حصلت على العلاج الفيزيائي والنفسي، هذا الدور الصغير الذي استطاع توسيع دائرة الحقيقة الاجتماعية التي توفر للأغنياء ما لا يتوافر للفقراء الذين يتمسكون بأمل يضيء وجه أمينة وهي تكذب حالمة بأن ابنها سهيل سيمشي فعلاً، فتزرع الأمل في نفس المقعدة الثرية التي تستمع إليها.

وأضيف إلى عائلة الفيلم النسائية اسم السيناريست سماح القتال التي شاركت الفنان أيمن زيدان في كتابه السيناريو، وأضافت تفاصيل بيئية ونسائية وأبعاداً بصرية في أكثر من عمل سابق.

شهيد الفساد!

يتجاوز الوضوح الفكري، والموقف الأخلاقي، والحلم الوطني موقعه كركيزة وجدانية لفيلم أمينة إلى كونه منطلق التجربة الإبداعية لأسلوب أيمن زيدان، ذلك أن الحرية الداخلية التي يريدها تعطي مشاهده السينمائية انطلاقة تمضي بتصميم لرسم تفاصيل غنية تحرر شخصياته من قيودها، وتجعلهم يتماهون في بيئتهم مع نداء أملهم الداخلي، راسماً على وجوههم وفي عيونهم وحركتهم سلوكاً لا تراه سوى العين السينمائية التي ترصد العلاقة بين المصير الإنساني الفردي والوطني العام.

وتأخذ قضية البطل المقعد سهيل مكانها المحوري في الواقع الفني لفيلم أمينة لتكون الأزمة التي تدور حولها الأحداث متصاعدة حتى الذروة، ومتمثلة بسلسلة تضحيات العائلة والإصرار على مواصلة الحياة بمعنى شقاء سهيل من عجزه راسمة سلوك الأم والأخت بين الواقع والأمل.

وتمثل حقيقة استشهاد سهيل في بيته بعد إصابته في ساحة الحرب، البعد الأكثر جرأة، حيث تكشف واقعيته الفنية أن «سهيل» يستشهد مرتين، الأولى على أرض المعركة، والتي لم تصبه بمقتل، والثانية على يد الفساد والابتزاز المحيط بالعائلة، الذي يكون العقبة الرئيسية أمام تعافي سهيل ونجاح العائلة.

حيث ينفتح البعد الفني على آفاق وطنية أبعد وأقسى من ساحة القتال.. ويقدم أيمن زيدان المخرج المبدع جود سعيد كممثل قدير استطاع بتحريك عينيه فقط تقمص شخصيته البطل سهيل، المسجى على فراش التضحية وكشهيد راض ومتصالح وفخور بتضحيته، ليكون مركز سعي العائلة لتخطي الأزمة والإصرار على الشفاء بالأمل، لنشاهد أجمل التفاصيل السينمائية والمشاهد المبتكرة التي يؤديها جود سعيد ونادين ولمى بدور وهم يمارسون واقعهم وتحديهم وحلمهم في بيت قروي قديم وإمكانيات مادية فقيرة.

حيث تسير أحداث الفيلم في طريق الحلم والأمل وربما التعافي بعد تضحيات العائلة وشجاعتها تظهر تلك البقعة السوداء داخل البيئة المكافحة ليكون وجه الفساد ممثلاً بثري يبتز العائلة ويهددها للحصول على الابنة سهيلة السبب الرئيسي لاستشهاد سهيل على فراشه.

ويجسد الممثل القدير قاسم ملحو ببراعة دور هذا الفاسد الذي يحاول أيضاً اغتصاب سهيلة أمام مرأى عيني أخيها المقعد، ويرسم الخاتمة الفاجعة عندما يأتي للمرة الثانية مهدداً سهيلة بالفضيحة بعد خطبتها لمن اختارت ما يجعل «سهيل» يتعرض لصدمة نفسية وصحية أخيرة تسبب له الموت، ليكون الفساد عدواً داخلياً يتوازى مع العدو الخارجي الذي تصدى له سهيل في الميدان.

ابتكار المستقبل

يذكرني فيلم أمينة بقصيدة للشاعر الكبير أدونيس كتبها في الخمسينيات من القرن الماضي وهي تقول: «من هنا من موطني ابتكر المستقبل» وذلك عند بدايات تأسيس الدولة السورية، فيلم أمينة ينظر إلى تأسيس جديد بعد التضحية والانتصار إن المشاهد البصرية البانورامية التي تنتقل بين الجبال والسهول البكر والغابات تضع بيت أمينة القديم في حضن الوطن، وتجعله يختار مواصلة الحياة باكتشاف سبل جديدة للعمل ليكون مكان انبثاق أمل جديد.

ويراهن الفيلم على إصرار الجيل الشاب متمثلاً بسهيلة وخطيبها الشاب الواعد، الذي يؤدي دوره الفنان الموهوب حازم زيدان، ليكون استمراراً للشهيد سهيل، ويكون هذا الثنائي ما تبقى للعائلة من أمل، وظهيراً لأمينة وخلفية تمسكها بالأرض حيث ينتهي الفيلم بذهابها لحراثة البيدر، المشهد الذي لا يخلو من اتهام ويأس وإحباط، لولا أنه فعل مصر على الحياة والعمل فوق سنابل محروقة.

وتشكل نهاية الفيلم حيث تصبح أمينة الحصان الذي يحرث بقعة البيدر السوداء ذلك التماهي بين الواقعية السردية والواقعية الفنية حيث تمضي كاميرا الفيلم لتوثق تلاحم الإنسان والبيئة التي تتحول من صامتة إلى ناطقة، وها هو البيدر بحالاته المتعددة منذ بداية الفيلم: بسنابله الذهبية، وبكونه إرثاً تحب أمينة الحفاظ عليه، ثم بقعة سوداء محروقة، يكاد يكون شخصية ترصد حركة واسعة الدلالات تكافح للخروج من معاناة الفساد كما الحرب.

إن فيلم أمينة الذي يبدأ من آخر تطورات الموجة السينمائية الجديدة، ليكون أحد أبرز وأنضج الأعمال السينمائية في واقعيته الفنية، يشير أيضاً إلى أن تيار السينما السورية الآن يأخذ مجراه العميق، ويكتب مع أمثاله من الأعمال السينمائية المتميزة مواصفات هوية وطنية تجعل أفلامها باقية، لا عابرة مع شروط آنية، ووصف البقاء هنا للسينمائي ووزير الثقافة محمد الأحمد الذي شغله هذا الهدف لأكثر من ربع قرن مضى.

مصادر التثقيف

حسين مهدي أبو الوفا

تتعدد مصادر التثقيف الحقيقي الأمثل وتتنوع حيث تكاد تشمل التراث الثقافي الإنساني العام بكليته. هذا التراث المجيد الذي أبدعته البشرية عبر أممها الحضارية العظمى، على اختلاف شخصياتها الإنسانية القومية وأزمنتها التاريخية ومداراتها الوجودية، ومن ثم على اختلاف عبقرياتها الفذة المتميزة، في مجالات الروح والعقل والنفس والوجدان، التي تعكسها آدابها وثقافتها وفلسفتها وعلومها وفنونها الرفيعة الممتازة. فكان بحق أثمن ما صاغته هذه البشرية من كنوز رائعة، وأسمى ما أبدعته من إنجازات معجزة مما يجدر بها أن تزهو به وتعتز، ومما يجدر بنا أن نصونه ونحافظ عليه.

وإذا كان التراث الثقافي الإنساني العام، هو من حيث الصنع والإنتاج، ملكاً ذاتياً وخاصة للأمم الحضارية العظمى التي أبدعته، فإنه من حيث الاستعمال والانتفاع، ملك جماعي مشاع لأمم العالم كافة وعلى السواء ودونما أي تمايز أو تفاضل فيما بينها. فلكل أمة ملء الحق في أن تصطفي منه ما تشاء، مما تحتاج إليه وتتوخاه من جهة، ومما يلائمها وينسجم معها من جهة أخرى؛ كما على كل أمة ملء الواجب في أن ترعاه وتحميه من العبث والتخريب والضياع، وأن تنميه وتغنيه وتعلي من شأنه وقيمته. وينقسم التراث الثقافي الإنساني العام، من حيث اصطفاء الأمم إياه، إلى ثلاثة أقسام رئيسة كبرى، وذلك تبعاً لطبيعة كل قسم ومن ثم تبعاً لحاجة كل أمة إلى هذه الأقسام هي: ١- قسم الاطلاع، ٢- قسم الاقتباس، ٣-وقسم التمثل. أما قسم الاطلاع فهو القسم ذو الفكر العلمي المحض، المتمثل في الأفكار الثقافية الأدبية والفلسفية والفنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، (فهذا القسم تصطفيه الأمم بدافع المعرفة التنويرية المجردة) أو بدافع الدراسة النقدية المقارنة، أو بدافع البحث العلمي البحت، لا غير من دون لزوم لاقتباسه أو تمثله، وذلك لكونه القسم الذاتي الخاص جداً الذي تتمايز به هذه الأمم وتتفرد، وتتغاير وتختلف، وأمام الاقتباس، فهو القسم ذو الفكر العلمي المحض، المتمثل في العلوم الرياضية والهندسية والطبيعية والتقنية والثقافية وغيرها من العلوم الأخرى المماثلة، وهو يؤلف القسم الوضعي والتجريبي والصناعي من التراث الثقافي الإنساني العام والهوية العالمية المشتركة. وأما قسم التمثل، فهو القسم ذو الفكر الوجداني العام، المشتمل على أسمى الرؤى والقيم والمثل والمبادئ والأحلام والآمال والعواطف والمشاعر والأحاسيس الإنسانية الخالدة؛ فهذا القسم تصطفيه الأمم بدافع ذاتي مطلق، لكونه القسم الذي يعبر عن جوهرها الأدبي الواحد، والذي تلتقي على صعيده لقاءها الفطري الحر البريء.

ولما كانت الأمة العربية من أبرز الأمم الحضارية العظمى، التي أسهمت في إبداع التراث الثقافي الإنساني العام، وفي تنميته وإغنائه وتطويره، وفي صيانته ورعايته والحفاظ عليه، كانت بالمقابل من أقدر الأمم على استعماله على خير وجه، والانتفاع به إلى أقصى حد، في بعثها الثقافي الجديد.

ويتكون التراث الثقافي الإنساني العام بالنسبة للمثقف العربي، من صنفين أساسيين كبيرين، هما: التراث الثقافي العربي، والتراث الثقافي العالمي.

التراث الثقافي العربي:

يشكل التراث الثقافي العربي الصنف الأعرق والأضخم والأعظم والأغنى من التراث الثقافي الإنساني العام، فلقد بزغ مع فجر الحضارة فكان الأعرق وجوداً، وتكون عبر مختلف العصور وانطوى على أسمى روائع الفكر فكان الأضخم حجماً والأعظم قيمة، وضم كل ضروب المعرفة فكان الأغنى محتوى. وبذلك فقد حق له أن يكون جوهر هذا التراث الثقافي الإنساني العام وآيته الفذة.

وينقسم التراث الثقافي العربي، تبعاً للأطوار الكبرى التي يمر بها، إلى ثلاثة أقسام:

١- التراث الثقافي العربي القديم، ٢- التراث الثقافي العربي الوسط، ٣- التراث الثقافي العربي الحديث.

التراث الثقافي العربي القديم

ينطوي التراث الثقافي العربي القديم على جماع ما أنتجته الأمة العربية من فكر إنساني رفيع في طورها الحياتي الأول، الممتد منذ الزمن اليمني الأصغر حتى الزمن الإسلامي الأعظم، والمنسحب على عدد لا يحصى من العصور المديدة والشعوب الكثيرة، التي كانت قوام التاريخ البشري آنذاك، أمثال العصور والشعوب المعينية والسبئية والحميرية واللحياتية والثمودية والمكية والعمورية والبابلية والآشورية والآرامية والكنعانية والآدمية والنبطية والتدمرية والجاهلية وغيرها من العصور والشعوب ذات الآثار الحضارية البارزة.

لوحة حيدر يازجي مثال حاضر للواقعية التعبيرية وفيها تجاور بصريّ صادم يبهرنا

سارة سلامة

خص الكتاب الشهري لليافعة والصادر عن وزارة الثقافة الهيئة العامة للكتاب وضمن سلسلة «أعلام ومبدعون» الخامسة والثلاثين الفنان التشكيلي المبدع حيدر يازجي، بالشرح مطولاً عن سيرة حياته ونشأته منذ الصغر إلى أن لمع اسمه في أفق واسع لا يزال يحفر في جبيننا السوري قصة إنسان وفنان ومبدع، حيث تناولت الكاتبة والصحفية أريج بوادقجي مسيرته الحافلة وهو الفنان والإنسان الذي أغمض عينيه، وما زال يحلم أن يعيش مثلما كان يعيش في حيّ السريان بمدينة حلب.

المكان الذي استطاع أن يجمع كل أطياف الشعب في حيّ واحد، بل في لوحة فنية ساحرة بكل ما فيها من تفاصيل غنية وألوان بهية، حيث كانت أعماله الفنية الخالدة وذكراه الطيبة كالحمامات، تطوف حولنا.

ولم يكن الدكتور حيدر يازجي فناناً بحتاً، وأستاذاً جامعياً صرفاً، بل كان شخصية متفردة، تمتلك مهارات الإدارة والتواصل الفعال، وقدرة عالية على التفاهم مع مختلف فئات المجتمع والشرائح العمرية، إذ كان إنساناً دمثاً مثقفاً متفهماً متواضعاً يستوعب الجميع، ويقدر قدراتهم ومهاراتهم.

من أنطاكية بدأت الحكاية

في لواء سورية الساحر «لواء إسكندرون» وفي مدينة أنطاكية «تاج الشرق» ولد حيدر سليمان يازجي عام ١٩٤٦، من أسرة ريفية مكافحة، تحب الوطن وتعشق العروبة ولغتها العربية، وعلى صخور اللواء الصلبة خطا خطواته الأولى، ومن خضرته السورية عرف الجمال وألفه، ومن نهر العاصي رشف أولى رشفات النقاء.

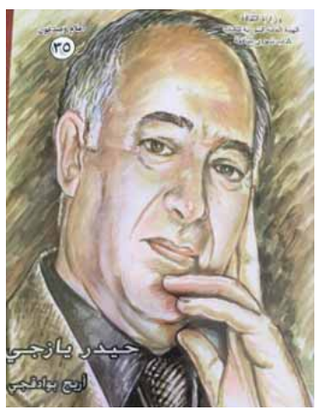

آثرت عائلة حيدر الانتقال إلى مدينة حلب بعد أن سلب الأتراك بالتعاون مع الاحتلال الفرنسي اللواء السوري، رفضاً للجنسية التركية، وتمسكاً بالجنسية العربية السورية، ليعيش الفنان حيدر ما بقي من مرحلة طفولته بين أحضان أسرته في حيّ السريان في حلب الشهباء، هذا الحي الذي يمتاز بطابعه الخاص، وبجوه الاجتماعي المنفتح، فهو الحيّ الجامع لكلّ المجتمع الحلبي المحب للحياة والفن والأدب، وبجميع أطيافه تحت عريشة المحبة والانفتاح والتفاهم.

عمل ودراسة

لم يُخلق حيدر وحيداً وفي فمه ملعقة من ذهب، ولم تكن الطريق أمامه معبداً، فهو من عائلة سورية بسيطة، تركت ما تملك من رزق في مسقط رأسها أنطاكية، وراحت لتعاود البناء من الصفر في مدينة حلب، تعمل وتجتهد لتعيش، أما اليافع حيدر ذو القلب المتقد والعينين الطموحين، فلم يكن مستسلماً للظروف، ولم يغب الطموح يوماً عن مخيلته، إذ كان يستغل كل فرصة لتطوير ذاته، ولم يستصعب الدمج بين العمل والدراسة، ولم يتكبر يوماً على أي نوع من أنواع العمل، مهما كان شاقاً ومتعباً، ففي أيام الصيف الحارة، كان حيدر اليافع يعمل ببيع الخضر، فكل يحمل على ظهره كيساً من الخيش، وينادي بين الحارات القديمة، تارة على الخسّ، وتارة أخرى على الخيار.

وقد يسألونني: كيف نال حيدر الشهادة الثانوية وهو في هذه الظروف؟ هل سجل في مدارس خاصة، وحضر دروساً مكثفة في مادتي الرياضيات واللغة العربية؟

سأخبركم أصدقائي! لا هذا ولا ذاك، بل كان يعمل في معمل للنسيج في حلب، يحمل مع مجموعة من العمال أثواب القماش، وعند انتهائه من عمله المطلوب، كان يجلس على ظهر الشاحنة، ليفتح كتابه، ويبدأ بالدراسة والتحضير للامتحان.

إلى دمشق والفنون الجميلة

لم يكتف حيدر الشاب بحصوله على شهادة معهد الفنون التشكيلية من حلب، إذ كانت موهبته تناديه دائماً، وتلح عليه قائلة: «أريد أن أتطور.. أريد أن أنمو أكثر»، فقد شغله منذ الصغر حلمه بالانتساب إلى كلية الفنون الجميلة في دمشق، وخصوصاً أنه من عائلة فنية تميزت بموهبة الرسم، فإخوته جميعاً يحبون الرسم، أما أخواله فهم أدهم ونعيم وعزيز وصدقي إسماعيل، وقد سمّي مركز الفنون التشكيلية في دمشق باسم خاله أدهم إسماعيل.

إلا أن تحقيق هذا الحلم تأخر، فهو لم يتمكن من السفر إلى دمشق والدراسة فيها، حتى يؤمّن تكاليف المعيشة هناك.

وفي هذه الأثناء، لم يقف حيدر الشاب مكتوف اليدين، بل درّس مادتي الرسم والكيمياء في إعداديّات حلب وثانويّاتها، وعمل بكل حب فلم يكن مدرساً تقليدياً، كما كان عضواً مؤسساً لبعض الأنشطة الاجتماعية فيها، إذ أسّس مع مجموعة من المثقفين والمهتمين معرض الربيع الأول عام ١٩٦٣م، وفي عام ١٩٦٤م فاز بالجائزة الأولى لمعرض طلاب مراكز الفنون التشكيلية وخريجيها الذي أقيم في حمص.

وفي عام ١٩٦٩م تحقق حلمه أخيراً، وانتسب إلى كلية الفنون الجميلة في دمشق، ليبدأ مشواره الأكاديمي، ويحصل فيما بعد على الجائزة الأولى لطلاب الجامعة السورية، كما كانت تسمى آنذاك.

أعمال فنية خالدة

عرف اليازجي بأنه فنان الواقعية الهادفة النابضة بالأحاسيس والمشاعر الناعمة، كما تأثر بالمدرسة الانطباعية، ونقلها في أعماله بأسلوب واقعي، وقد تميزت ريشته بنمط خاص، إذ أبدع في رسم الأشخاص بمقاساتهم الحقيقية أو القريبة منها، فهو يجسد التفاصيل الصغيرة بعبقرية وعفوية، وإحساس يكاد يدخل إلى مزاجاتهم النفسية، كما أقام العديد من المعارض الفردية، وشارك في العديد من المعارض الجماعية العربية والعالمية، وتنوعت أعماله بين البورتريه، والطبيعة والتوثيق.

أما النقاد فلم يمروا بأعمال الفنان يازجي مروراً عابراً، بل كانت لوحاته مادة دسمة للنقد والتحليل الفني، لما تتميز به من خيال وثقافة، راهن بهما على لا محدودية الابتكار والتجديد في الفن، فلفنه تجاور بصريّ صادم يبهرنا، ويحملنا لنعيش حالات إنسانية طالما اختلجت لوناً وضوءاً في مخيلة فناننا، لتكون لوحته مثالاً حاضراً للواقعية التعبيرية.